قد صدق على وثيقة وفاتها يزيد من حدة هذا السقوط . هذا لا يعني اننا نضع امام الشعب الفلسطيني مهمات روحانية . ولكن الظروف الموضوعية التي صنعتها الامبريالية والصهيونية لم تدع لهذا الشعب مخرجا سوى الوعي الثوري . لن يأتي هذا الوعي تلقائيا . كما ان ايديولوجية الثورة الفلسطينية والثورة العربية لن تبنى دون صدام . ولكن الامبريالية، في سعيها لتقوية مواقعها في هذه المنطقة الهامة ، خلقت وضعا يتطلب عملية ثورية عميقة تعجز البورجوازية عن قيادتها . ولا يمكن لهذه العملية ان تبقى محصورة بالشعب الفلسطيني، فترابط الصهيونية مع المصالح الحيوية للامبريالية في الشرق الاوسط وفي المتوسط يفرض ترابطا بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية ، التي تشكل بدورها جزءا لا يتجزأ من الثورة العالمية .

بذلك تكتشف الثورة العربية في ممارستها الايديولوجية الوحيدة القادرة على بناء الثورة العالمية ، وهي ايديولوجية الطبقة العاملة . وتتمكن الثورة عندئذ من ازاحة كافة المفاهيم الوهمية التي حاكتها الامبريالية — الصهيونية حول المشكلة الفلسطينية. وكان تطوير مفهوم « الدولة الديموقراطية الفلسطينية » الخطوة الحاسمة في هذا المجال . فبالرغم من ان « فتح » كانت قد فرقت منذ البدء ، وقبل حزيران ٦٧ ، ما بين اليهودية والصهيونية ، فالممارسة اجتماعية، ولم يكن ممكنا ان تأتي الخطوة الثانية ، وهي الخطوة الحاسمة ، قبل ان تدخل الايديولوجية الثورية وطريق حرب التحرير الشعبية الى الجماهير الفلسطينية . وكما كتبت « فتح » : « لقد اتت الثورة بالنضوج للمقاتلين . وبالرغم من المظاهر ، فان الذين يناضلون يصبحون اكثر تسامحا . ان العنف في الافكار والاقوال لا يرافق سوى اليأس والانهيار » . واليوم ، فان مجمل الشعب الفلسطيني يستوعب الايديولوجية الثورية، ويتعلم ان يفرق ما بين اليهودية والصهيونية ، ويتأمل في مستقبل فلسطين . ان الخيال ، في انبل معانيه — اي بمعنى التخطي الخلاق — قد بدأ يتحقق . وقد ظهرت في الاشهر الاخيرة وثيقتان تعبران عما توصل اليه تفكير هذا الشعب المقاتل. والوثيقتان هما وثيقة « فتح » التي ذكرناها والوثيقة التي قدمتها الجبهة الشعبية الديموقراطية لتحرير فلسطين الى الندوة العالمية للمسيحيين من أجل فلسطين .

ان كون المرء ثوريا عربيا ويهوديا في الوقت نفسه يفرض عليه بعض البحث اذ كان يعتبر نفسه ماركسيا . لقد تعودت العقلية البورجوازية ، ومن بعدها ما يسميه احد اصدقائنا بالاركيوماركسية (وهي ماركسية مطورة مع تعابير «ما قبل التاريخ» اي عصر البورجوازية بالنسبة لماركس) على **ابعاد** الدين عن المجال الايديولوجي والثقافي . ولنأخذ فرنسا «كنموذج»، وهي البلد الذي يعتبر «نموذجا» في المغرب . ماذا يعني ان يكون المرء فرنسيا . ان الدين ، بالنسبة للمؤمنين ولغير المؤمنين ، مسألة جانبية تدخل في « باب خاص » لدى الانسان « المبوب » الذي يخلقه المجتمع البورجوازي . وهذه « الابواب » ، اذا احصيناها ، هي العمل ، والعائلة ، والوطن ، يضاف اليها الدين او لا يضاف . والثقافة اين موقعها ؟ انها باب آخر تدخل فيه السهرات المسرحية ونوادي البريدج والجوائز الادبية التي تشكل الثقافة البورجوازية، ليس فقط في فرنسا ، بل بالنسبة للانسان «الحديث» ، سواء أكان موظفا كبيرا او رجل اعمال في طبقاتنا الحاكمة « الكومبرادور » . والعربي ، بالنسبة لهم ، هو الذي يناقش بالفصحى عن فوائد الفكر الاسلامي والشخصانية المسيحية . والماركسي هو الذي يناقش في موضوع النماذج الاقتصادية ووتائر النمو ونمط الانتاج الاسيوي والمجتمعات البطريركية او الصناعية . اما اليهودية فتظهر ، كما قال احدهم ، في نفحة من « كيسلر » او من « انريكو ماسياس » .

في هذا الاطار ، ماذا يعني ان يكون المرء عربيا يهوديا ؟ بما ان اليهودية لم تكتف بالبقاء دينا يدخل في الباب الذي خصص له منذ ١٨٠٠ عام ، فهي اذا امة . ثم يحددون انها امة « اصيلة » مما يتيح لهم ان يضيفوا بأن الماركسية ليست ، في احسن الاحوال سوى نظرية اقتصادية ، وانها عاجزة عن تفسير المسألة القومية . اذا كونوا يهودا او عربا (كما قال مرة احد القوميين البورجوازيين المغاربة : فليدخلوا الى المسجد ولن تعود هنا مشكلة !) . اما ان يكونوا الاثنين معا ، فلا !

ليس الهدف هنا ان نعرض اوضاعا فردية ، بل ان نبين ان تخطي هذا التناقض قد يأتي عن طريق العيش بموجبه . ان نعيش هذا التناقض لا يعني ان نتحمله او ان نهرب منه ، بل يعني بعث الصيرورة واعلان الحقيقة . « لقد كان ذلك في قلبي